الموازنة والمسايرة في العلاقات الدولية _ دراسة في نماذج التوازن الدولي

Balancing and Bandwagoning in International Relations

Study in International Balance Models

أ.م.د عادل عبد الحمزة ثجيل* م.م. عمار كريم حميد*

Adel Abdulhamza Thgeel Ammar Kareem Hemeed

الملخص:

تعدُّ دراسة سلوكيات التحالفات وانماطها من أهم الموضوعات التي تُعنى بها النظرية الواقعية في العلاقات الدولية، وقدم المنظرون داخل هذه النظرية الكثير من الطروحات حول كيفية تشكيل التحالفات وأهميتها وتأثيرها في مسارات الاستقرار والتغيير في النظام الدولي. ومن أبرز من قدم طروحات نظرية في هذا المجال هم **(كينيث والتز في انموذجه لتوازن القوى، وستيفن والت في نظريته توازن التهديد، وراندل شويللر في نظريته توازن المصالح)**. ومن أهم سلوكيات تشكيل التحالفات التي تناولها هؤلاء المنظرين ضمن النظرية الواقعية هما سلوكا **الموازنة والمسايرة**.

ويتأثر ترجيح هذا السلوك أو ذاك بالتحولات المعرفية التي تحدث داخل النظرية الواقعية، وكيف يأتي تفسير خيارات الدول إزاء هذا السلوك أو ذاك في سياق هذه التحولات، يُضاف الى ذلك أدوات ومستويات التحليل. لذا أنه وعلى الرغم من النقاط الثابتة التي يتفق عليها الواقعيين إلا انهم يختلفون في تناولهم لديناميكيات التحالفات والسلوكيات التي تمثلها، وكذلك في قراءتهم للشواهد التاريخية. وهذا ما نشهده في اختلاف طروحات كل من (والتز، ووالت، وشويللر).

كلمات مفتاحية: التوازن، المسايرة، توازن القوى، توازن التهديد، توازن المصالح.

Abstract

The study of the behavior of alliances is one of the most important topics in which the realistic model is concerned with international relations. The theorists within this model have presented many proposals about how alliances

* كلية العلوم السياسية جامعة بغداد.
* مركز الرافدين للحوار.

are formed, their importance and impact on the paths of stability and change in international politics. Among the most prominent who presented theoretical arguments in this field are (Kenneth Waltz in his Balance of Power model, Stephen Walt in his Balance of Threat theory, and Randall L. Schweller in his Balance of Interests theory). Among the most important alliance-forming behaviors that these theorists waived within the realistic model are the behaviors of balancing and Bandwagoning.

The weighting of this or that behavior is affected by the cognitive transformations that occur within the realistic model, and how the interpretation of countries' choices regarding this or that behavior comes in the context of these transformations, in addition to the tools and levels of analysis. Therefore, despite the fixed points that the realists agree on, they differ in their approach to the dynamics of alliances and the behaviors they represent, as well as in their reading of historical evidence. This is what we witness in the different propositions of (Waltz, Walt, and Schweller).

Key words: balance, Bandwagoning, balance of power, balance of threat, balance of interests.

المقدمة:

درجت نظريات العلاقات الدولية لا سيما الواقعية منها على معالجة ديناميكيات التفاعل بين الدول في النظام الدولي، ومن ضمنها ديناميكيات التحالفات؛ إذ انبرت النظرية الواقعية الى هذه المَهمّة منذ 2500 عام عندما تولى مسألة التنظير لها المؤرخ اليوناني (ثيوسيديدس) الذي عالج أسباب ودوافع التحالفات والحرب بين قوة مهيمنة وأخرى صاعدة -أثينا وأسبرطة- في كتابه المعروف (الحروب البولوبونيزية)، ومن ثم تلاه المفكرين الآخرين الذي أكملوا وضع الأسس والقواعد التي أستندت إليها النظرية الواقعية امثال (توماس هوبز)، (نيقولا ميكافيللي)، وصولاً الى (هانز مورجانثو) وليس انتهاءً بـ (كينيث والتز) ومن تبعه.

إن الفكر الواقعي تكيّف مع التغيرات والأحداث التي طرأت على النظام الدولي في مراحله المتعاقبة، ونتج عن ذلك التكيف ظهور مذاهب مختلفة التوجه حول قضايا بارزة، مع الحفاظ على ثوابت هذه المدرسة. ومن هذه القضايا هي: خيارات الدول وسلوكياتها في التشكيل والانضمام الى التحالفات لا سيما في سلوكيّ **الموازنة والمسايرة**. واعتمد منظرو النظرية الواقعية على مستويات معينة في التعاطي مع هذين السلوكين، فمثلاً ركز كينيث والتز في أنموذجه لتوازن القوى على مستوى بنية النظام الدولي وتوزيع القدرات في معالجاته لهما، وافترض بأن تحركات الدول تكون على هذا الأساس في هذا النظام. بينما قدم ستيفن والت معالجة مختلفة عن تلك التي جاء بها والتز، وافترض ان التهديد هو المحفز للدول في تشكيل التحالفات، لكنهما يتفقان على ان سلوك الموازنة هو السلوك الشائع في النظام الدولي. وعُرف الاتجاه الذي مثله كل من والتز ووالت بالواقعية البنيوية، او ما يعرف بالواقعية الجديدة.

ظهر التطور الآخر من الواقعية على يد مجموعة من المنظرين الذين أخذوا على عاتقهم الخوض في غمار المتغيرات التي أهملها من سبقهم في هذا الانموذج المعرفي لا سيما متغير الدولة والفرد، وأسسوا ما يعرف اليوم بالمدرسة الواقعية الكلاسيكية الجديدة (النيو كلاسيكية)، وفي مقدمتهم (راندل شويللر). قدم شويللر مراجعة مهمة لطروحات كل من والتز ووالت حول سلوكيّ **الموازنة والمسايرة**، وخاض بشكل مفصل في هذين السلوكين، وافترض أن سلوك المسايرة هو السلوك الشائع في النظام الدولي.

استند كل واحد من هؤلاء المنظرين على حجج مهمة وشواهد تاريخية تدعم ما يدعيه، كما أنهم ركزوا في تحليلهم لهذه السلوكيات على وفق مستويات تحليل سبروا اغوار ديناميكيات تشكيل التحالفات.

أهمية البحث: تتأتى أهمية هذا البحث من كونه محاولة للتتبع أبرز الطروحات النظرية لثلاثة من أبرز المنظرين ضمن النظرية الواقعية في العلاقات الدولية حول سلوكيّ **الموازنة والمسايرة** وأثرهما في مسار الاستقرار والتغيير في النظام الدولي، هذه الطروحات التي تعدُّ جزءاً لا يتجزأ من التحولات المعرفية الذي طرأت على النظرية الواقعية منذ منتصف القرن العشرين.

هدف البحث: يهدف هذا البحث الى التعرف على سلوكي **الموازنة والمسايرة** من وجهة نظر ثلاث من أبرز المنظرين ضمن النظرية الواقعية في العلاقات الدولية، وبحث ترجيحات كل واحد منهم لسلوكٍ دون آخر مستندين على ما يروه من حجج وشواهد تاريخية وأحداث معاصرة. كما يهدف هذا البحث الى سبر اغوار سلوك **المسايرة** بوصفه سلوك لم يتم الخوض فيه بشكل مفصل من قبل الكثير من الباحثين والدراسين في مجال العلاقات الدولية لاسيما في المكتبة العربية.

مشكلة البحث: يعالج البحث مشكلة مفادها: ان اطروحات النظرية الواقعية حول سلوكيات التحالفات وديناميكياتها مختلفة داخل هذا الانموذج المعرفي مع انها تنهل من مشرب ومدرسة واحدة، ويعتقد كل منظِّر داخل هذا النظرية بأرجحية سلوك على آخر مستنداً الى حجج ترجح ادعاءه النظري في التوازن والمسايرة، على الرغم من شواهد وواقع تاريخية متشابهة، لكن بنتائج مختلفة في دوافع الدول وأهدافها من التحالفات في النظام الدولي.

فرضية البحث. إن الجدالات النظرية حول سلوكيات التحالفات داخل النظرية الواقعية تأتي في سياق التحولات المعرفية التي طرأت على هذه النظرية، وتطورات الاحداث وتفاعلاتها التي استجدت في النظام الدولي، اجبرت المنظرين في إعادة النظر بالعديد مِن مسلمات وطروحات مَن سبقهم، او تكييفها بما يستوعب التحولات، ويفسر التفاعلات ويفهم التطورات، معتمدين على مستويات تحليل مختلفة، ومرجحين لسلوك دون آخر بوصفه سلوكاً شائعاً في العلاقات الدولية.

منهجية البحث: سيتم في هذا البحث توظيف المنهج الاستقرائي والمدخل النظمي للتعرف على الشواهد التي تدعم حجج كل منظر من المنظرين الذين سيتم الخوض في طروحاتهم.

هيكلية البحث: من أجل الوقوف على أبز نقاط التحليل والتقصي لمفاصل هذا البحث، ولمحاولة التحقق من الفرضية المطروحة تم تقسيم البحث على ثلاثة محاور رئيسة:

أولاً: الموازنة والمسايرة في انموذج توازن القوى.

اظهرت الواقعية فكراً جوهرياً لحقبة امتدت لـ 2500 عام على يد أبرز كتابها ومؤيديها الرئيسيين بدءاً بـ(ثيوسيديس) ومروراً بـ(توماس هوبز)، و(ميكافيللي)، و(وكارل كلاوزفيتز) وصولاً إلى (إيدوارد كار)، و(نيبور)، و(هانز مورجنثاو)[1]. وقد سمي هذه الاتجاه من الواقعية بالواقعية الكلاسيكية او بما يسمى بـ"واقعية الطبيعة البشرية"[2]. إذ تناولت كتابات هؤلاء وغيرهم – الذين يعدون من رواد الفكر الواقعي لتلك الحقبة – المسائل التي تتعلق بكل من النظام والعدالة والتغيير على المستويين المحلي الدولي، ومن المظاهر التي ميزت كتابات هؤلاء الرواد في تلك الحقبة التي امتدت لـ 2500 عام هو تركيزهم على التشابهات، وليس الفروق، بين السياسة المحلية والدولية، إلا أن المظهر الأبرز للاتجاه الواقعي الذي مثله

---

[1] ريتشارد ند ليبو: الواقعية الكلاسيكية، في، تيم دان وآخرون (محررون): نظريات العلاقات الدولية (التخصص والتنوع)، ترجمة، ديما الخضرا، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2016، ص 170.

[2] جون ميرشايمر: مأساة سياسة القوى العظمى، ترجمة، مصطفى محمد قاسم، جامعة الملك سعود، الرياض، 2012، ص23.

هؤلاء الكتاب ولاسيما (ثوسيدس، وميكافيللي، ومرجنثاو) هو تناولهم للآلية الأبرز بالنسبة لهم في النظام الدولي الذي يتميز بالفوضى: التوازن. والتحالفات التي يعدونها الأداة الأمثل للفوضى التي تُميّز النظام الدولي[1]. فبالنسبة لـ(نيبور) يعد توازن القوى هو الأداة التنظيمية لتحقيق الحد الادنى من العدالة، اذ يقول: "أن بعض توازنات القوى تشكل القاعدة لتحقيق بعض العدالة في العلاقات الإنسانية وحيثما يكون عدم التساوي في القوى كبيراً [....] فلا يمكن لأي دعوات اخلاقية او عقلانية أن تحقق العدالة"[2].

تعدُّ الواقعية النظرية الأقدم والأكثر استخداما لتفسير الأحداث والقضايا في العلاقات الدولية International Relations (IR)، اذ تتمتع هذه النظرية بأهمية وقوة بالغة في هذا المجال، وتشكل **القوة** بؤرة هذا التفكير الواقعي. وتتفرع هذه النظرية إلى اتجاهات تكاد تتفق جميعها على الفوضى كصفة ملازمة للسياسة الدولية والنظام الدولي، وعلى التوازن كآلية مثلى لإدراك تلك الفوضى أو على الأقل التقليل منها أو كحل مبدئي لها، ويسلّم الواقعيون بأولوية القوة والأمن في الحياة السياسية الدولية[3]، وتستند الواقعية، من ضمن ما تستند عليه، على التأريخ لتصل إلى تعميمات حول السلوك الدولي، وتركز على الدولة كفاعل رئيس ومحور التحليل في النظام الدولي، فضلاً عن التركيز على الطبيعة البشرية كدافع نحو امتلاك القوة، إذ يعد رواد الفكر الواقعي الكلاسيكي الطبيعة البشرية بوصفها طبيعة تجنح نحو الخطيئة وتنزع نحو القوة.[4]

نشأت فكرة التوازن مستندة الى نظام توازن القوى في السياسة الدولية في القرن السادس عشر كمفهوم مجازي مستعار من مجالات أخرى مثل الأخلاق، والفنون، والفلسفة، والقانون، والاقتصاد وغيرها من المجالات، وبعد القرون التي تلت القرن السادس عشر، لا تزال صورة التوازن التي تُصوّر على أنها رد فعل تلقائي مدفوعاً بقانون الطبيعة، تميّز كيفية عمل هذه النظرية في مجال العلاقات الدولية. ويُشير (كينيث والتز) إلى أهمية سلوك التوازن بقوله: "كما تمقت الطبيعة الفراغ والخواء، فإن السياسة الدولية تمقت السلطة غير المتوازنة"، وعلى الرغم من أن نظرية توازن القوى تعدُّ أقدم نظرية في تاريخ العلاقات الدولية، إلا أنها كانت وما تزال يكتنفها بعض الغموض المفاهيمي والادعاءات النظرية والتجريبية

---

[1] ريتشارد ند ليبو: مصدر سبق ذكره، ص 170.

[2] نقلا عن، جيمس دورتي وروبرت بالستغراف: النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، ترجمة، وليد عبد الحي، مكتبة كاظمة، الكويت، 1995، ص ص 64-65.

[3] جاك دونللي: الواقعية، في، سكوت بورتشيل وآخرون: نظريات العلاقات الدولية، ترجمة، محمد صفار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014، ص ص 51-52.

[4] جيمس دورتي وروبرت بالستغراف: مصدر سبق ذكره، ص ص 59-63.

المتنافسة بشأنها؛ إذ أنَّ مفهوم توازن القوى يتسم بالحركية والهلامية وقد يدلُّ على الاستقرار وقد يدلُّ على الحرب، لكن بداية التوازن انبثقت عن فكرة الصراع وهذا ما يجعل منه – أي التوازن – هو الآلية الأنسب عند الواقعيون بغض النظر عن التطورات والتفسيرات المعرفية لديهم.[1] فكما قال (كينيث والتز): "إذا كانت ثمة نظرية متميزة للسياسة الدولية فإنها لن تكون سوى توازن القوى".[2] يتفق الواقعيون، بجميع اتجاهاتهم داخل النظرية الواقعية، على أن نظام توازن القوى هو جزء جوهري من السياسة الدولية، وأن توازنات القوى تتكرر لأن القوى العظمى تعزز قدراتها استجابة للقدرات المتزايدة لقوى أخرى قد تظهر في النظام الإقليمي والدولي.[3]

وبالنسبة إلى التعريفات التي حاولت وصف توازن القوى، فنجد (شوازبنرغر) يعرفه بأنه: "تعادل أو قدر من الاستقرار في العلاقات الدولية بحيث ينبثق تحت أوضاع ملائمة من تحالف دول أو من أدوات أخرى".[4] أمّا (إيمريش دفاتيل) Emmerich de Vattel وصفه "حالة قائمة بحيث لا يمكن لأي سلطة أن تستأثر بالتفوق وتفرض قانونها على الآخرين". ويرى (مورجنثاو) إن الغرض من إقامة التوازن هو الحفاظ على الوضع الراهن؛ والذي يقضي بعدم الجواز لدولة ما أن تقلبه وتسيطر وتفرض هيمنتها.[5] أو "هو إجراء تتخذه دولة لمنع جيرانها من أن يصبحوا أقوياء بدرجة كبيرة [...] لأن تضخم أمة لما وراء حدود معينة يغير النظام العام لجيرانها من الأمم الأخرى [...] أو هو العمل على استمرار شكل من أشكال المساواة والتوازن بين الدول المجاورة".[6]

في حقبة السبعينات من القرن العشرين، ظهر تيار من المنظرين الواقعيين حاولوا تقديم افتراضات ميزوا من خلالها بين البيئة المحلية والدولية، على العكس من الواقعية الكلاسيكية التي ركزت على التشابهات بينهما، إذ ركزوا على بنية النظام الدولي كمحدد له الأولوية على المحددات الأخرى، وجادلوا

---

[1] إبراهيم أبو خزام: الحروب وتوازن القوى، دراسة شاملة لنظرية توازن القوى وعلاقتها بجدلية الحرب والسلام، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، 1999، ص ص 50 –51.

[2] Kenneth Waltz: Theory of International Politics, (Reading; Mass: Addison–Wesley, 1979), p. 217.

[3] Robert S. Ross: Balance of Power Politics and the Rise of China: Accommodation and Balancing in East Asia, Security Studies, Vol. 15, No.3, (July–September 2006), p. 359.

[4] نقلاً عن، سعد حقي توفيق: مبادئ العلاقات الدولية، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، 2010، ص ص 223 – 224.

[5] نقلاً عن، جيرار ديسوا: دراسة في العلاقات الدولية (النظريات البيدولتية)، الجزء الثاني، ترجمة: قاسم المقداد، دار نينوى، دمشق، 2015، ص 76.

[6] مايكل شيهان: توازن القوى، التاريخ والنظرية، ترجمة، أحمد مصطفى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015، ص ص 12 – 13.

بأن بنية النظام الدولي هي التي تؤثر بقيودها على الفاعلين (الدول) وتقوم بالتحكم بسلوكهم وعُرف هذا التوجه بالواقعية البنيوية او (الواقعية الجديدة)، وأبرز من مثل هذا التيار هو (كينيث والتز) Kenneth Waltz.[1] حاول والتز ان يفسر سلوك التوازن والمسايرة في انموذج توازن القوى الذي صاغه في كتابه "نظرية السياسة الدولية"*. فما هو مفهوم توازن القوى التقليدي لديه؟ وما هي الفكرة التي استند عليها؟

يجادل والتز في كتابة (نظرية السياسة الدولية)، ان انموذج توازن القوى هي المقاربة السياسية المتميزة للسياسة الدولية.[2] ويحاول في كتابه هذا أن يضع صياغة لهذا الانموذج ويرسخ أُسسه، وعلى الرغم من تسليمه بعدم وجود اتفاق عام بشأن هذه النظرية أو الانموذج، فضلا عن أنه مثار جدل ويشوبه الالتباس، إلا أنه جعل غايته إزاحة هذا الالتباس الذي شابَ فكرة توازن القوى، ونتج عن محاولته هذه أن جعل من صياغته لتلك الفكرة واحدة من أبرز المراجع وأكثرها إثارة في مجال العلاقات الدولية.[3] إنَّ هذه الصياغة الدقيقة والصارمة التي قام بها والتز لنظرية توازن القوى التقليدية قد وفرت الأساس النظري للعديد من الأعمال الفكرية التي لحقتها في مجال السياسة الدولية والأمن القومي، إذ تّعرض من خلال هذه الصياغة لخصائص النظام الدولي مثل: تكرار الحروب والتشكيل المتكرر لتوازنات القوى.[4]

يجادل والتز أن النظرية تقودنا إلى التوقع بأن تتصرف الدول بطرق تؤدي إلى تشكيل توازنات، إلا أن السلوك الذي تختاره الدولة سواء كان الموازنة **Balancing** أم المسايرة **Bandwagoning** يعتمد على بنية النظام الدولي، ويجادل، في مثال يخصُّ السياسة المحلية للدولة، بأن اختيار الأحزاب لمرشحيها يوضح متى يكون أحد السلوكين راشداً ويتناسب مع البيئة المحيطة به.[5] فمحلياً، يعدَّ سلوك الموزانة والمناورة التي يرغب القادة السياسيين في أن يكونوا عليها تحدث فقط عندما يفتقر إلى وجود قائد

---

[1] جيرار ديسوا: مصدر سبق ذكره، ص ص 107-110.

* ان كتاب نظرية السياسة الدولية (Theory Of International Politics) لمؤلفه (كينيث ووالتز) هو الكتاب الذي يشكل القاعدة الاساسية للواقعية البنيوية (الجديدة) ويعد عند بعض المنظرين الكتاب الأكثر تأثيراً في ما كتب عن العلاقات الدولية في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث تجلت في هذا الكتاب نظرية توازن القوى بشكلها النظري الابرز. يُنظر، جون مير شايمر: الواقعية الجديدة، في، تيم دان وآخرون (محررون): مصدر سبق ذكره، ص 222.

[2] Kenneth Waltz: Op.cit., p.117.

[3] ريتشارد ليتل: توازن القوى في العلاقات الدولية (الاستعارات والاساطير والنماذج)، ترجمة، هاني تابري، دار الكتاب العربي، بيروت، 2009، ص 197.

[4] Thomas J. Christensen and Jack Snyder: chain gangs and passed bucks, predicting alliance patterns in multipolarity, International Organization, vol 44, no 2, p.138.

[5] Kenneth Waltz: Op.cit., p.125.

بارز أو قوي، لكن بمجرد ان يبدوا شخص ما وكأنه الفائز تقفز أغلب الأطراف لمسايرة ركبه بدلاً من الاستمرار في تشكيل توازنات تهدف إلى الحد من فوزه بالقوة، ففي الأنّظمة السياسية المحلية تكون المسايرة مع شخص قوي وبارز هي أسلوب راشد ومعقول لأكثر من سبب أبرزها تحقيق المكاسب وتقليل الخسائر، فضلاً عن أن فوز أحد لا يعني تهديد أمن الآخرين ووجودهم، أمّا في النظام الدولي فالأمر مختلف، كما يراه والتز، إذ تعمل الدول بجد لزيادة أمنها أو تنظم مع الدول الأخرى لتشكيل تحالفات موازنة ضد الدولة القوية الصاعدة، فالدولة كما يتوقع والتز تحاول أن تعيد التوازن إلى نصابه ولا يتوقع من الدول ان تتحالف وتساير ركب الأقوى (تتبع سلوك المسايرة) من أجل زيادة قوتهم وسيطرتهم على الآخرين، لذا تجدهم يبحثون عن حلفاء قد يساعدونهم في الموازنة ضد ذلك القوي، فالدول في نظر والتز ستفضل الانضمام إلى اضعف التحالفين من أجل الموازنة ضد القوي، ومن ثم درء الخلل الذي يصيب التوازن.[1]

عند تكوين التحالفات فان الدول الثانوية، كما يجادل والتز، إذا كانت حرة في الاختيار سوف تسير مع الجانب الضعيف لكي توازن الجانب الأقوى لأنّ الأخير هو الذي يشكل تهديداً لهم، فمع الجانب الأضعف سيكونون أكثر تقديراً وأكثر أمناً، شريطة أن يكون التحالف الذي ينضمون إليه يحقق قوة دفاعية رادعة بشكلٍ كافٍ للتوازن ضد الخصوم الأقوياء وردعهم، ومن الامثلة التاريخية التي يختارها والتز لدعم حجته هذه هو أن دول المدينة في اليونان عدّت (اثينا) الأقوى كدولة طاغية وشريرة ومستبدة، وبالمقابل، عدّت (اسبارطة) الأضعف كمحرر لهم، ووفقا لـ والتز فان هذا المثال يظهر بشكل جيد كيف يؤثر وضع الدول على سلوكهم، كما أنه يدعم الافتراض الذي مفاده ان الدول توازن القدرات والقوة بدلاً من تعظيمها، فالدول نادراً ما تجعل تحقيق أقصى قدر من القوة هدفها الأسمى، وهذا ما يُطلق عليه بـ "**الواقعية الدفاعية**"، فالسياسة الدولية، كما يرى والتز، خطيرة جداً لعمل كهذا.[2]

إن تركيز والتز على السياسة الدولية ليست لأنها شيء فريد من نوعه بسبب الأحداث التي تدور في فلكها من حروب وأزمات وصراع فهذا وارد حتى في السياسة المحلية، بل ان الفارق الكبير بين النظام السياسي الدولي والنظام السياسي المحلي يكمن في بنية كل من هذين النظامين؛ فمحلياً لا يتعين على الافراد ان ينشغلوا بالدفاع عن انفسهم او أن يصبح الأمن شغلهم الشاغل، أمّا دوليا فالأمر مختلف تماماً عند والتز، فبنية النظام الدولي تتميز بالفوضى، اي لا توجد سلطة عليا تأخذ على عاتقها حماية الدول

---

(1) Ibid, p.126.

(2) Ibid, p.126

من الاقوياء المعتدين ومن ثم لا يمكن تحقيق الأمن إلا بالتوازن.[1] وفي هذا الصدد كتب والتز: "في الفوضى، الأمن هو الغاية الاسمى"، فقط إذا تم ضمان البقاء يمكن للدول ان تسعى بأمان إلى اهداف اخرى مثل الطمأنينة، والربح، والقوة، لأنّ القوة وسيلة وليست غاية، فالدول تفضل اللحاق بأضعف التحالفين من اجل الموازنة ضد القوي لضمان بقائها، وبذا فإن الهدف الذي يشجع الدول في النظام الدولي على السعي نحوه هو الأمن، فلو كان السلوك الشائع للدول هو تعظيم القوة ومسايرة الجانب الأقوى فأننا لن نرى توازناً يتشكل وإنما هيمنة عالمية زائفة، لكن هذا لن يحدث لأنّ الموازنة وليس المسايرة هو السلوك الشائع للدول والناتج عن النظام الدولي، فالشغل الشاغل للدول هو ليس تعظيم القوة وانما الحفاظ على وضعها في النظام.[2]

يجادل الواقعيون الدفاعيون – ومن ضمنهم والتز – بأن هنالك عدداً قليلاً من الحروب انتهت بفائدة للدول التي بدأتها، فالدول تميل للتوازن ضد المعتدي، ومن ثم فأنها – أي الدول– تحطم المكاسب للدول المهدِدة وتغرقها مهما كانت، فالغزو "لا ينتج ربحاً"، والواقعيون الجدد يحاولون إثبات شيء أساس بالنسبة لهم مفاده ان الدول في النظام الدولي يجب عليها ان تتبع سياسات الكبح بأكثر من طريقة، عسكرية كانت أم دبلوماسية أم اقتصادية.[3] وعلى الرغم من إدراكهم ان بنية النظام الدولي تخلق حوافز قوية للحصول على قوة إضافية، إلا انهم يعدّون السعي نحو الهيمنة هو "حماقة" على المدى البعيد لأنّ الهيمنة ستؤدي إلى التوسع الزائد عن اللزوم، ويرى والتز ان الدول لكي تحافظ على توازن قوي ومستقر عليها أن تسعى إلى ما يسميه بـ"القدر المناسب من القوة".[4] وهذا عكس ما يذهب إليه الواقعيون الهجوميون.

ان الدولة، بحسب والتز، إذا سعت إلى زيادة قوتها ومن ثمّ إلى الهيمنة فأنها ستجبر الدول الكبرى الاخرى على الموازنة ضدها، ومن ثم سيظهر سلوك الموازنة، اذ ستقوم هذه الدول بتشكيل تحالفاً من شأنه أن يوازن تلك الطموحات التوسعية، وانها بلا شك ستتحالف مع الدول الأضعف لإعادة التوازن إلى وضعه وذلك بعد ان يتم كبح الدولة التوسعية (التعديلية). وهذا ما حدث لفرنسا النابليونية (1792 –

---

[1] تيموني دن: الواقعية، في، جون بيليس وستيف سميث: عولمة السياسة العالمية، ترجمة ونشر، مركز الخليج للأبحاث، جدة، 2004، ص 245.

[2] Kenneth Waltz: Op.cit., p.126.

[3] كارين أ. منغست و إيفان م. أريغوين: مبادئ العلاقات الدولية، ترجمة، حسام الدين خضور، دار الفرقد للطباعة والنشر، دمشق، بلا سنة، ص 115.

[4] جون ميرشايمر: الواقعية البنيوية، مصدر سبق ذكره، ص 220.

1815)، والامبراطورية الالمانية (1900 – 1918)، والمانيا النازية (1933 – 1945)، عندما حاولوا التوسع والسيطرة على اوروبا، إذ انهم جوبهوا بتحالفات موازِنة شملت معظم او كل الدول العظمى آنذاك، وفي مقابل ذلك يتم الثناء على عبقرية (اوتو فون بسمارك) التي تكمن في ادراكه للقوة الطامحة والزائدة عن اللزوم والتي ستكون ضارة وتأتي بنتائج عكسية لألمانيا، وستقود جيرانها (الذين سيكونون اضعف في هذه الحال) إلى الموازنة ضدها عن طريق تشكيل تحالف مضاد لهزيمتها وكبح طموحها التوسعي، ولذا فأنه وضع بالحكمة التي يمتلكها الكوابح على الطموح الالماني آنذاك بعد تحقيقه الانتصارات الكبيرة في الحرب النمساوية – البروسية (1866) والحرب الفرنسية – البروسية (1871).[1] ان والتز في نموذجه البنيوي لتوازن القوى يعدّ سلوك المسايرة سلوكا معاكسا للتوازن، بوصفها –المسايرة– التحاقا بالجانب الأقوى، أمّا الموازنة فهو التحالف مع الجانب الأضعف.[2] ومن ثم فإنه يجادل بأن سلوك الموازنة أكثر شيوعاً من المسايرة، لأنّ الموازنة في نظره هو السلوك الناتج عن النظام سواء كان دولياً أم إقليمياً.[3]

نستنتج من كل ما تقدم، بأن الواقعيون البنيويون (الجدد) وفي مقدمته كينيث والتز يشيرون، بشكل صريح وضمني، إلى أن الموازنة هو السلوك الطاغي في السياسة الدولية وأن المسايرة مع قوة تعديلية صاعدة هو أمر نادراً حدوثه، وبذا فأن الوضع الراهن هو الوضع المريح – حسب رأيهم – بالنسبة لمعظم الدول قائم على أساس توزيع القدرات.

ثانياً: الموازنة والمسايرة في نظرية توازن التهديد.

في محاولة لتقديم تفسير علمي واقعي عن تشكيل التحالفات قدّم (ستيفن والت)* Stephen M. Walt إعادة صياغة لانموذج توازن القوى أسماه نظرية توازن التهديد، Balance the threat إذ يذهب

---

[1] المصدر نفسه، ص 221. يُنظر ايضاً: هانز مورجنثار، السياسة بين الامم (الصراع من اجل السلطان والسلام)، الجزء الاول، ترجمة: خيري حماد، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، ص 71.

[2] Randall L. Schweller: Bandwagoning for Profit, Bringing the Revisionist State Back In, International Security, Vol. 19, No. 1 (Summer, 1994), p.80

[3] Kenneth Waltz: Op.cit., p.126.

* ستيفن والت هو أستاذ العلاقات الدولية في كرسي (روبرت ورينيه بيلفر) للشؤون الدولية في جامعة هارفارد. ينصب جل اهتمامه في مجال نظرية العلاقات الدولية، إذ يعدّ معروفاً بطروحاته في هذا المجال والتي أبرزها نظريته (توازن التهديد) Balance the threat، التي طرحها في كتابه المعروف (أصول التحالفات) The Origins of Alliances، فضلاً عن كتابه الذي صدر مؤخراً (عام 2018) بعنوان (جحيم النوايا الحسنة: النخبة في السياسة الخارجية الأمريكية وتراجع سيادة الولايات المتحدة) The Hell of Good Intentions: America's Foreign Policy Elite and the Decline of U.S. Primacy ، وله العديد من المقالات والأبحاث في مجال السياسة الدولية. يُنظر:

والت بعيداً عن صياغات توازن القوى الاساسية في تفسيرها لتشكيل التحالفات وهي توزيع القدرات، ويجادل والت بأن الدول عند تشكيلها للتحالفات تكون مدفوعة ليس فقط بتوزيع القدرات كما تجادل نظرية توازن القوى وانما تتحرك بدافع توازن التهديدات.[1] تحاول نظرية توازن التهديد تجنب المآخذ التي سبق وتم توجيهها لنظرية توازن القوى التي تفترض ان سوء توزيع القدرات يشكل اختلالاً في توازن القوى، كما تجادل بأن تشكيل التحالفات ودخول الحرب او التأهب لها يأتي كاستجابة للتهديدات وان توزيع القدرات مهم وقد يكون عامل من عوامل التهديد لكنه ليس الوحيد الذي يفعل ذلك لأنّ هنالك – على وفق رأيه – عوامل اخرى تكون معيارا للتهديد.[2]

لهذا يطرح والت بأن الدول عندما تواجه تهديداً خارجياً يهدد سلامة اراضيها واستقلالها يمكن لها أمّا ان توازِن (التحالف مع القوى الاخرى ضد مصدر التهديد) او تتبع سلوك المسايرة (التحالف مع مصدر التهديد)، ليحدد والت اختيار الدول لسلوك الموازنة ام المسايرة من خلال اختيارها للتحالف أمّا ضد مصدر التهديد الرئيس (الموازنة) او مع مصدر التهديد الرئيس (المسايرة).[3] وفكرته هذه تنطلق من فرضية مؤداها: في السياسة الدولية، إذا كانت الموازنة أكثر شيوعا من المسايرة فأن الدول تكون أكثر أمنا لأنّ المعتدي سيواجه معارضة مشتركة، لكن إذا كانت المسايرة هي الاتجاه السائد في السياسة الدولية فان الأمن سيكون نادرا، لأنّ نجاح المعتدين سوف يجذب حلفاء اضافيين مما يعزز قوتهم ويقلص في الوقت نفسه من قوة خصمهم.[4]

يبحث والت في كل من سلوك الموازنة وسلوك المسايرة ويتطرق إلى الاختلافات بين هذين السلوكين وإلى دوافعهما والظروف التي تؤدي بالدول إلى اتباع هذا السلوك او ذاك، وفي تفسيره لسلوك الموازنة، يجادل والت ان الاعتقاد الذي مفاده ان الدول تشكل التحالفات من اجل منع الدول الأقوى من الهيمنة عليها هو اعتقاد يقع في قلب نظرية توازن القوى، ووفقا لهذه النظرية تنضم الدول إلى التحالفات

Stephen M. Walt: Robert and Renee Belfer Professor of International Affairs (Harvard Kennedy School), at: https://www.hks.harvard.edu/faculty/stephen-walt

[1] Randall L. Schwellel: Bandwagoning for Profit, Op.cit., p.75

[2] نادية محمود مصطفى (محررا): العلاقات الدولية في عالم متغير (منظورات ومداخل مقارنة)، الجزء الثالث، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، 2016، ص 1901.

[3] Stephen M. Walt: The Origins of alliances, (Ithaca, New York, Cornell University Press, 1990), P.17

[4] Ibid

لحماية نفسها من الدول التي يمكن ان تشكل مواردها المتفوقة تهديداً.[1] يقول والت بأن الدول تختار سلوك الموازنة لسببين، الاول: ان الدول تخاطر في بقائها إذا فشلت في التوازن ضد المهيمن المحتمل قبل ان يصبح مهيمناً فعلاً، وان التحالف مع قوة مهيمنة واتباعها يعني وضع ثقتها تحت رحمة المتبوع، ليعدُّ سلوك الموازنة الاستراتيجية الأكثر امانا لأنّها تؤدي إلى الانضمام إلى الاطراف الذين لا يهيمنون على حلفائهم بل يوازنون ضد من يريد ذلك، ويستشهد والت بكلام "ونستون تشرشل" رئيس وزراء المملكة المتحدة الأسبق، إذ وصف الأخير السياسة الخارجية لبلاده بأنها تميزت باتباع سلوك التوازن لأربعمائة عام، وقامت بموازنة كل من يريد ان يهيمن على قارة اوروبا، على رغم من سهولة وإغراء اللحاق بالأقوى والمشاركة في ثمرات الغزو، ليكون سلوك الموازنة هو الخيار الاصعب، لكنه في الوقت نفسه منع القوى التي تريد الهيمنة على اوروبا.[2] السبب الثاني: ان التحالف مع الطرف الأضعف يؤدي إلى زيادة تأثير العضو الجديد في التحالف لأنّ الجانب الأضعف لديه حاجة اكبر لطلب المساعدة للموازنة ضد المهيمن المحتمل، وعلى العكس من ذلك، فأن اللحاق بالجانب الأقوى يضعف من نفود العضو الجديد لأنّ دخوله لا يضيف الشيء الكثير إلى التحالف ويكون عرضة لنزوات شركاؤه الجدد، وبذلك فأن المحالفة مع الجانب الأضعف – كما يجادل والت – هي الخيار الذي يتم تفضيله على بقية الخيارات، ويقول والت بأن وزير الخارجية الاميركي الاسبق (هنري كيسنجر) فضل خيار الموازنة عندما رجّح خيار التقارب مع الصين على خيار التقارب مع الاتحاد السوفيتي إبان الحرب الباردة لأنّه كان يعتقد ان في علاقة ثلاثية يجب التقارب مع الجانب الأضعف.[3]

وفي ضوء ذلك يطرح والت سؤال مفاده: ما المغزى من المسايرة او الدوافع التي تدفع الدول إلى سلوك المسايرة؟ للإجابة على ذلك يطرح والت دافعين يكمن وراءهما سلوك المسايرة، الاول: هو ان المسايرة يمكن ان تكون شكل من اشكال الاسترضاء، ويتمثل ذلك الاسترضاء بقيام دولة ما بالتحالف مع دولة صاعدة او تحالف، وتأمل الدولة من خلال ذلك تجنب الهجوم عليها وتحويله إلى مكان آخر، يتجلى ذلك في قيام دولة ما باسترضاء دولة صاعدة ذات نيات عدوانية من خلال مزيداً من المكاسب، وخير

---

(1) Ibid, p.18

(2) Stephen M. Walt: Alliance Formation and the Balance of World Power, International Security, Vol. 9, No. 4 (spring, 1985), pp. 5–6

(3) Ibid, p.6

مثال على ذلك سياسة (تشامبرلين) لاسترضاء هتلر.[1] أمّا الدافع الثاني، فهو دافع هجومي، كما يصفه والت، فقد تتحالف دولة مع الجانب المهيمن في الحرب او الذي تعتقد به الجانب الاوفر حظا في النصر وذلك من اجل المشاركة في غنائم النصر، ويذكر والت إعلان (موسوليني) الحرب على فرنسا ودخول روسيا الحرب ضد اليابان في عام 1945 كأمثله بارزة على هذا الدافع، فالدول ومن خلال الانضمام مع ما يعتقدون به انه الأقوى كل واحد منهم يأمل بتحقيق مكاسب على الارض. ويجادل والت بأن هذين الدافعين مختلفين تماما وإلى حد بعيد، ففي الدافع الاول تم اختيار سلوك المسايرة لأسباب دفاعية وكوسيلة للمحافظة على استقلال الدولة وسلامة اراضيها في مواجهة الخطر المحتمل للدولة الصاعدة، أمّا في الدافع الثاني فقد تم اختيار سلوك المسايرة لأسباب هجومية من أجل كسب غنائم النصر والارباح ولهذا الدافع اختارت الدولة المسايرة مع الجانب الأقوى.[2] وهنالك مثال يذكره والت ويعدّه يمثل كلا الدافعين للمسايرة بشكل اوضح وهو قرار (جوزيف ستالين) في التحالف مع (هتلر) في عام 1939، فالتحالف السوفيتي النازي قاد إلى تمزيق بولندا وغيّر من مسار طموحات هتلر نحو الغرب، وبذا فان (ستالين) بهذا القرار قد كسب كل من الوقت والارض من خلال مسايرة قوة المانيا.[3]

في نظرية توازن القوى، تم تأطير سلوكي الموازنة والمسايرة فقط بتوزيع القدرات: الموازنة هو التحالف مع الجانب الأضعف، المسايرة هو التحالف مع الجانب الأقوى.[4] يدّعي والت ان نظريته توازن التهديد تتفوق على نظرية توازن القوى، وحجته في ذلك انها تقدم قوة تفسيرية أقوى لتشكيل التحالفات واختيار الحلفاء، إذ لا يسلّم والت بالاختلال في توزيع القدرات كسبب وحيد لجعل الدول تركن إلى تشكيل التحالفات من اجل اعادة التوازن،[5] اذ يرى بأن الدول توازن ضد التهديد وليس ضد القوة (توزيع القدرات)، فقد تملك بعض الوحدات الدولية القدرات لكنها لا تكون مهددة للآخرين، او غير عدوانية، او لا تملك اي نوايا لإيذاء جيرانها.[6] ليقدم والت اربعة مصادر يعدُّها عوامل أو معايير مختلفة لقيام توازن التهديد وهي:

---

(1) Stephen M. Walt: The origins of alliances, Op, cit, p.21. See also: Randall L. Schweller : Bandwagoning for Profit, Op.cit., p.81

(2) Stephen M. Walt: Alliance Formation and the Balance of World Power, Op.cit., p.8

(3) Stephen M. Walt: The origins of alliances, Op.cit., p.21

(4) Kenneth Waltz: Theory of International Politics, (chapter 6), Op.cit., pp.102–128.

(5) Randall L. Schweller: Bandwagoning for Profit: Bringing the Revisionist State Back In, Op.cit., p.76.

(6) أحمد محمد أبو زيد: كيف تتحرك الدول الصغرى، نحو نظرية عامة، مجلة العلوم السياسية، (جامعة بغداد – كلية العلوم السياسية، بغداد، العدد 44، 2012)، ص 46.

1: القوة [القدرات] الاجمالية Aggregate Power: يذكر والت انه في نظرية توازن القوى ذات المنحى البنيوي الصارم، تم تناول سلوكي الموازنة والمسايرة من خلال توزيع القدرات فقط (الموازنة هو التحالف مع الجانب الأضعف، المسايرة هو التحالف مع الجانب الأقوى)، وعلى الرغم من ان هذا التفسير للسلوكين قد يكون مثيراً للإعجاب، الا انه في نظره يعدُّ تفسيراً ضعيفاً لا يصمد كثيرا امام النقاش الدائر حول سلوك التحالفات، لأنّ الدول كما يقول والت، قد توازن من خلال تحالفها مع الطرف الأقوى إذا كان الطرف الأضعف أكثر خطورة لأسباب منها النيات العدوانية والخبيثة بشكل خاص.[1] في اطار هذا العامل، فأنه كلما ازدادت القدرات الاجمالية لدولة ما (حجم السكان، والقدرات الصناعية والعسكرية، والبراعة التكنولوجية... الخ) كلما كان هنالك تهديد محتمل قد تشكله هذه الدولة، يصدق ذلك، كما يقول والت، على الاستراتيجية التي اتبعتها الولايات المتحدة الاميركية والتي اقتضت منع اي دولة من السيطرة على المزيد من الموارد الصناعية للوصول إلى القوة الاميركية، وذلك عندما سعت إلى التحالف ضد اي دولة تحاول السيطرة على منطقة (اوراسيا) الغنية بالثروات.[2] فالقدرات الاجمالية التي يمكن لدولة ما ان تمتلكها، يمكن ان تعد عنصرا او عاملا هاما من عوامل التهديد، فضلا عن كونها عامل من عوامل التهديد، الا انه يوظف في جوانب اخرى، فالدول ذات القدرات الاجمالية الكبيرة لديها القدرة على معاقبة الاعداء او مكافئة الاصدقاء او الحلفاء، لتوفر القدرات الاجمالية دافعاً للتوازن ضدها او المسايرة معها.[3]

2: القرب الجغرافي Geographic Proximity: يطرح والت فكرة مفادها ان التهديد الذي تشكله دوله ما على دولة او دول اخرى يتناقص مع بعد المسافة، وبذا فأن الدول التي تكون قريبة جغرافياً (الدول المجاورة) تشكل تهديداً اكبر من تلك التهديدات التي تشكلها قوى بعيدة جغرافياً.[4] فالدول تنضم او تشكل التحالفات كاستجابة للتهديدات التي تشكلها الدول القريبة جغرافيا منها أكثر من تلك التهديدات التي تشكلها الدول البعيدة نسبياً.[5] وكما هو الحال في عامل (القدرات الاجمالية) فأن التهديدات القريبة جغرافيا جغرافيا يمكن ان تؤدي الاستجابة لها أمّا إلى الموازنة ضدها او المسايرة معها. فعندما تأخذ الاستجابة للتهديدات القريبة جغرافيا سلوك الموازنة، فأن شبكة التحالفات التي تأخذ شكل لوحة الشطرنج تكون هي

---

(1) Stephen M. Walt: Testing theories of alliance formation: the case of Southwest Asia, International Organization, Vol 42, Issue 2, (March 1988), p 279.

(2) Stephen M. Walt: The origins of alliances, Op.cit., p.22.

(3) Ibid, p 23.

(4) Stephen M. Walt: Alliance Formation and the Balance of World Power, Op.cit., p.10.

(5) Stephen M. Walt: The origins of alliances, Op.cit., p.23.

النتيجة المرجحة، ومن الامثلة على ذلك هي فرنسا وروسيا ضد المانيا في الحرب العالمية الاولى، والاتحاد السوفيتي وفيتنام ضد الصين وكمبوديا، والمحالفة الضمنية بين ايران وسوريا ضد العراق، وبعض جيرانه العرب في نهاية الثمانينات.[1] أمّا إذا اخذت الاستجابة للتهديد القريب جغرافيا سلوك المسايرة فان دائرة نفوذ الدولة التي تسايرها جيرانها ستزداد، فالدول الصغيرة المتاخمة للقوى العظمى ضعيفة بحيث تختار المسايرة بدلا من الموازنة، ولا سيما إذا ظهر لها جار قوي قادر على اجبارها على سلوك المسايرة كما هو الحال، على سبيل المثال لا الحصر، بالنسبة إلى فنلندا التي اختارت سلوك المسايرة مع الاتحاد السوفيتي بعد هزيمتها مرتين من قبله.[2]

3: القوة الهجومية Offensive Power: يعرض والت اهمية القوة الهجومية كمصدر او عامل من عوامل التهديد، فالدول التي يكون لديها قوات او قدرات عسكرية هجومية كبيرة من المرجح ان تشكل تهديدا على الاخرى وتستفز الجانب المقابل أكثر من تلك التي تكون ضعيفة عسكريا، او التي تكون قادرة على الدفاع فقط، او لأسباب اخرى مثل البعد الجغرافي الذي يقوض من قوة التهديد. ان عامل (القوة الهجومية) عندما يتحد مع عامل القرب الجغرافي يكون التهديد لا مفر منه بالنسبة للدول الاخرى، على العكس من توزيع القدرات وحدها، كما تجادل نظرية توازن القوى، التي تعدُّ الاختلال في توزيعها يشكل اختلالا في التوازن، ويرتبط عامل القوة الهجومية مع العامل الاول (القدرات الاجمالية) ارتباطاً وثيقاً لكنهما غير متطابقين بالضرورة، بتعبير أدق، ان القوة الهجومية هي القدرة على تهديد سيادة دولة اخرى وسلامتها الاقليمية بتكلفة مقبولة للمهدِدِ، وان التحول من القدرات الاجمالية إلى القوة الهجومية – اي بتكديس قدرات عسكرية كبيرة وقدرة على الحركة – يتأثر بالعوامل المختلفة التي تحدد الفائدة النسبية للهجوم او الدفاع في فترة معينة.[3] قد تختلف تأثيرات القوة الهجومية، لأن الخطر المباشر الذي تشكله القدرة الهجومية قد يخلق حافزاً قويا للآخرين على تشكيل تحالف للتوازن ضده ومن ثم يأتي بنتائج عكسية على صاحب التهديد، كما حدث مع "استراتيجية الخطر" risk strategy لصاحبها الاميرال الالماني (تربيتيز) Tirpitz، اذ نظرت المملكة المتحدة إلى الاسطول البحري الالماني كتهديد هجومي قوي، ممّا ادى بها – المملكة المتحدة – الى مضاعفة جهودها البحرية في الوقت الذي عززت فيه علاقاتها مع كل من فرنسا وروسيا، ومن جانب آخر عندما يترتب على القوة الهجوية غزو سريع قد ترى الدول الضعيفة

---

(1) Stephen M. Walt: Alliance Formation and the Balance of World Power, Op.cit., pp.10-11

(2) Stephen M. Walt, The origins of alliances, Op.cit., p.24.

(3) Stephen M. Walt, Alliance formation and the balance of world power, Op.cit., p.11.

أملاً ضئيلا في مقاومته، وقد يبدوا قرار الموازنة بالنسبة لهذا النوع من الدول قرار غير حصيف لأنّ الحلفاء لا يتمكنون من تقديم المساعدة بالسرعة الكافية لدرء مخاطر هذا التهديد، وهذا من الاسباب التي تظهر وترسخ مجالات النفوذ والتأثير، اذ ان الدول القريبة من دولة ذات قدرات هجومية كبيرة وفي الوقت نفسه تكون هذه الدول بعيدا جغرافيا كل البعد عن حلفاؤها المحتملين قد تضطر للمسايرة لأنّ تحالفات الموازنة في هذه الحال غير قابلة للتشكُّل.[1]

4: النوايا العدوانية: وفقا لـ والت، ان الدول التي ينظر اليها على انها دول ذات نوايا عدوانية من المرجح ان تثير الاخرين للتوازن ضدها.[2] ويشير والت إلى المانيا النازية بوصفها دولة عدوانية قبل وإبان الحرب العالمية الثانية التي ادت إلى اثارة تحالفا مضادا قويا ضدها(دول الحلفاء)؛ لأنّ المانيا النازية جمعت بين قوة كبيرة وهجومية وطموحات عدوانية خطير إلى حد كبير، وحتى تلك الدول ذات القدرات المتواضعة قد تدفع الاخرين إلى الموازنة ضدها واحتواءها إذا ما عُدَّت دولا عدوانية بشكل خاص، ومن الامثلة التي يطرحها والت لإسناد طرح هذا العامل من عوامل التهديد هو السلوك الليبي بقيادة العقيد (معمر القذافي) الذي انطوى على نوايا خطيرة والذي دفع دول منها فرنسا والولايات المتحدة إلى تنسيق الجهود السياسية والعسكرية مع بعض الدول المجاورة لليبيا – لاسيما العربية منها – ضد انشطة القذافي.[3]

لهذا فإن ادراك النوايا من الممكن ان يلعب دورا حاسما بشكل خاص في اختيارات الحلف، فعلى سبيل المثال ساعدت المدارك المتحولة لألمانيا بأنشاء اتفاق دولي ضدها، وعلى الرغم من ان (بسمارك) دافع عن الوضع الراهن بعد عام 1870 الا ان الطموحات التوسعية لمن خلفه من قادة المانيا اثارت قلق القوى الاوربية الاخرى، وعلى الرغم من نمو القدرات الالمانية آنذاك الا ان نيات الأخيرة عندما باتت عدوانية اثارت حافز الدول الاخرى في النظام الاوربي لتشكيل تحالف والموازنة ضد التهديد الآتي منها، بقصار الجمل فأن الدول الاوربية لاسيما المملكة المتحدة لم تعارض المانيا وتتوازن ضدها إلا عندما كان للأخيرة نوايا عدوانية وتوسعية، فالنية العدوانية ،كما يقول والت، وليس القدرات وحدها هي الامر الحاسم في تشكل التهديد.[4]

ان الدولة عندما تكون ذات نيات عدوانية وفي الوقت نفسه مصرة على ذلك فمن غير المرجح ان تكون هنالك دول اخرى ترغب بمسايرتها، وإذا كان من غير الممكن تغيير نيات المعتدي من خلال

---

(1) Stephen M. Walt: The origins of alliances, Op.cit., pp.24–25.

(2) أحمد محمد أبو زيد: مصدر سبق ذكره، ص 46.

(3) Stephen M. Walt: Alliance formation and the balance of world power, Op.cit., p.12

(4) Stephen M. Walt: The origins of alliances, Op.cit., pp.25–26.

التحالف معه (سلوك المسايرة) فمن المحتمل ان تصبح الدول الضعيفة حتى لو كانت متحالفة مع القوة ذات النيات العدوانية ضحية لتلك القوة والتوازن في هذه الحالة هو الطريقة المثلى لتجنب هذا المصير، والمثال على ذلك ، كما يذكره والت، رفض رئيس الوزراء البلجيكي (دي روكفيل) إنذارا نهائيا من المانيا في بداية الحرب العالمية الاولى معبراً بذلك عن رفضه بقوله: "إذا كان يجب علينا ان نموت، فلنمت بشرف. ليس لدينا خيار اخر[...]"،[1] وبذا كلما كانت الدولة أكثر عدوانية وتوسعية كلما زاد من احتمال تشكيل تحالف للتوازن ضدها.

ثالثاً: الموازنة والمسايرة في نظرية توازن المصالح

تأتي طروحات (راندل شويللر) Randall L. Schweller* ضمن التحول المعرفي في النظرية الواقعية: الواقعية الكلاسيكية الجديدة (النيوكلاسيكية)، لذا فهو يختلف في طرحه وفي تناوله لسلوكي الموازنة والمسايرة عن ما جاء به الواقعيون البنيويون، أمثال كينيث والتز وستيفن والت، إذ يعتمد شويللر شأنه في ذلك شأن الواقعيين الكلاسيكيين الجدد على مستويين من التحليل هما: مستوى الدولة، ومستوى النظام، يُضيف اليهما مستوى وسيط لكنه غير مستقل هو مستوى الفرد (صانع القرار)، ويأتي طرحه لنظرية توازن المصالح في هذا السياق من مستويات التحليل؛ إذ طرح شويللر نظريته توازن المصالح كنظرية تتناول سلوكيات التحالفات الي تتشكّل ليس فقط بدافع الأمن، كما ذهب كلا من والتز ووالت، بل

---

(1) Ibid, p.26.

* راندل شويللر Randall L. Schweller : هو بروفيسور ومنظر أميركي، وهو أستاذ العلوم السياسية في جامعة أوهايو الأميركية، تنصب جل طروحاته في مجال نظرية العلاقات الدولية، ويعدّ أحد رواد المدرسة الواقعية الكلاسيكية الجديدة (النيوكلاسيكية): التحول المعرفي ضمن النظرية الواقعي في العلاقات الدولية. لديه العديد من المؤلفات (كتب وأبحاث) في هذا المجال أبرزها كتاب (الاختلالات المميتة: الثلاثية القطبية واستراتيجية هتلر لغزو العالم Deadly Imbalances: Tripolarity and Hitler's Strategy of World Conquest صادر عام 1998) والذي طرح فيه نظريته "توازن المصالح" الذي يعيد فيها الاهتمام للدولة كمستوى مهم من مستويات التحليل، الى جانب مستوى النظام، والمستوى الوسيط: مستوى الفرد. وهي نظرية جاءت كثمرة للنقد الذي قدمه شويللر لطروحات الواقعيين البنيويين أمثال كينيث والتز وستيفن والت. للمزيد من المعلومات حول شويللر، يُنظر:

The Mershon Center for International Security Studies, The Ohio State University, at: https://mershoncenter.osu.edu/people/schweller.2 (accessed: 29 June, 2020).

أيضاً ناقش و ركّز على تلك التحالفات التي تتشكل بدافع الربح والمكاسب، لذا فهو خاض بسلوك المسايرة لا سيما بجانبها الطوعي والتي سلكتها الدول من أجل الحصول على الربح والمكاسب، وهذا ما جعل شويللر يذهب الى أن هذا السلوك – المسايرة – هو السلوك الشائع في السياسة الدولية؛ فنظرية توازن المصالح هي نظرية تركّز على الاهداف السياسية للدول بشكل عام وليس فقط على الأهداف الأمنية بشكل خاص، ويستعرض من خلال هذه النظرية كيفية استجابة الدول للتهديدات والفرص من خلال تحديد خياراتها على وفق متغيراتها وتفاعلها في الوقت نفسه مع الضغوط والمتغيرات النظامية.[1] ليطرح سؤال مركزي في أنموذجه أي السلوكين هو الشائع في السياسة الدولية: التوازن أم المسايرة؟. وهذا قاد شويللر الى إعادة النظر في مصطلح المسايرة الذي وظّفه كل من والتز ووالت لخدمة طروحاتهما.

1: إشكالية تفسير مصطلح المسايرة. يجادل شويللر بأن كل من والتز و والت قد وظّفوا مفهوم المسايرة وفسروه بمعناه الضيق، اذ عرضوا المسايرة، كسلوك لتشكيل التحالفات، وسلوك معكاس لسلوك الموازنة. بعبارة أخرى فإن والتز ووالت افترضا، بشكلٍ خاطئ – بحسب شويللر – بأن الموازنة والمسايرة سلوكان متعاكسان من اجل هدف واحد: تحقيق اكبر قدر من الأمن، ونتيجة لذلك تم تعريف سلوك المسايرة على نحو ضيق بوصفه استسلاماً للتهديدات، عكس الموازنة الذي تعدُّ الوقوف بوجه الأقوى (نظرية توازن القوى)، او الوقوف بوجه مصدر التهديد (نظرية توازن التهديد)، لكن شويللر يؤكد بأن الدول لديها اسباب مختلفة جدا لاختيار أحد السلوكين؛ فالهدف من الموازنة، بحسب شويللر، هو الحفاظ على الذات وحماية المصالح والقدرات الموجودة بالفعل، بينما يكون الهدف من المسايرة عادةً الامتداد والتوسع للحصول على المصالح المنشودة. بمعنى ان الموازنة تكون مدفوعة برغبة تجنب الخسائر، أمّا المسايرة فتكون مدفوعة برغبة فرص تحقيق الربح والمكاسب، فحضور تهديد على درجة من الاهمية يتطلب التوازن، بينما يكون ذلك غير ضروري بالنسبة للدول التي تساير (تتبع سلوك المسايرة).[2]

يصف كينث والتز في نموذجه البنيوي لتوازن القوى المسايرة، كسلوك للتحالفات، بأنها عكس سلوك الموازنة، اذ يقدم المسايرة على انها الالتحاق بالطرف الأقوى، فالموازنة تعني الالتحاق بالطرف الأضعف.[3] أمّا ستيفن والت فيعيد تعريف المصطلح ليتناسب مع نظريته توازن التهديد فيؤكد بأن الدول

---

(1) Randall L. Schwellel: Bandwagoning for Profit, Op.cit., pp.72-107. and: Randall L. Schweller: Deadly Imbalances, Tripolarity and Hitler's Strategy of World Conquest, (New York: Columbia University Press, 1998), pp.59-91.

(2) Ibid, p 74.

(3) Ibid, p 80. See also: Kenneth Waltz: Op.cit., p.126.

عند مواجهة تهديد خارجي يمكن لها أمّا ان توازن او تساير، الموازنة بالنسبة هي التحالف مع الآخرين ضد التهديد الذي يهدد سيادة الدولة واستقلالها، أمّا المسايرة فتشير – بحسب رأيه – إلى المحالفة او الانحياز مع مصدر التهديد او الخطر.[1] فضلا عن ذلك، كتب والت واصفا المسايرة على انها "المقايضة غير المتكافئة" من خلال طرحه فكرة أن: "المسايرة تتضمن المقايضة غير المتكافئة: فالدول الهشة تقدم تنازلات غير متماثلة للقوى المهيمنة وتقبل لعب دور التابع [...] المسايرة معدة للضغط (سواء كانت بشكل صريح او ضمني) [...] والاهم من ذلك كله، تقترح المسايرة استعداداً لدعم او تحمل تصرفات غير شرعية من قبل الحليف المسيطر".[2]

في نظريته توازن المصالح، يتبنى شويللر تعريفاً مغايراً لسلوك المسايرة ويزعم انه يتوافق أو يقترب مع التفسير الصحيح للمصطلح، ولذا، يركز شويللر على جوانب مهمة في سلوك المسايرة قد تم التغاضي عنها من قبل المنظرين الواقعيين لاسيما ستيفن والت، ومن هذه الجوانب هو الجانب الانتهازي للمسايرة وخيارات التحالف التي تشكل التهديد، فضلا عن تلك الدول التي تستجيب للتهديدات. بمعنى آخر، يطالب شويللر بضرورة إعادة الدول التعديلية إلى الادبيات النظرية الخاصة بدراسة للتحالفات.[3] ويؤكد بأن أحد المعايير الصحيحة لاختيار مصطلحٍ ما، هو عدم الخروج عن التفسير الحقيقي والواقعي لذلك المصطلح، فـ والت – كما يدّعي شويللر – انتهك المعيار الصحيح لتفسير مصطلح المسايرة، اذ استعار مصطلحي الموازنة والمسايرة من نظرية توازن القوى وأراد ان يجعلهما سلوكان متعاكسان، ومن ثم فإن والت – وفقاً لوجهة نظر شويللر – قد انتهك قاعدة الاستخدام الشائع لمصطلح المسايرة، فالاستخدام الشائع – كما يقول شويللر – يعرفها على انها حركة تجذب المؤيدين او تحشد القوة من خلال الزخم السياسي. وهي تقود الى تذكر عبارة "الصعود على متن العربة" التي تشير إلى اتباع تيار او اتجاه صاعد، او الالتحاق بالجانب الذي يكون من المُرجّح فوزه. إن المسايرة قد يتم اختيارها بحرية، ويمكن أيضاً ان تكون نتيجة للاستسلام لقوة قاهرة (الجانب القهري)، وهو الجانب الآخر الذي يقود لتبني سلوك

---

(1) Randall L. Schwellel: Bandwagoning for Profit, Op.cit., p.80. See also: Stephen M. Walt: The origins of alliances, Op.cit., p.17.

(2) Randall L. Schweller: Deadly Imbalances.., Op.cit., p.68. See also: Stephen M. Walt: Alliance Formation in Southwest Asia: Balancing and Bandwagoning in Cold War Competition, in; Robert Jervis and Jack Snyder (ed), Dominoes and Bandwagons, (New York; Oxford University Press, 1991), p.55.

(3) Randall L. Schwellel, Bandwagoning for Profit, Op.cit., p.75.

المسايرة. وتعرف نظرية توازن القوى المسايرة على أنها الانضمام إلى التحالف الأقوى، وتعدُه تفسير دقيق للمسايرة. لكن هذه التفسيرات لمصطلح المسايرة – بحسب شويللر – لا تتطرق إلا إلى الجانب الاجباري او القهري من مفهوم المسايرة والذي يمكن ان يُختصر بعبارة "إن لم تستطع التغلب عليه، التحق معه".[1]

التفسير الحقيقي لمصطلح المسايرة، كما يشير شويللر، يجب ألا يفترض بأن المسايرة تنطوي على الدعم اللاإرادي للقوة المهيمنة او الصاعدة نتيجة الاكراه فقط. وبحسب شويللر، فإن دوافع والت التي يقدمها لإتباع سلوك المسايرة قد تكون صحيحة إلا انها قد توجد حتى عندما لا يكون هنالك اختلالاً في التوازن، اي عندما تساير دولة ما الجانب الاقل خطورةً وتهديداً[2]. ويقدم شويللر نقداً مهماً للدوافع التي أتى بها والت بوصفها تؤدي الى تبني سلوك المسايرة. وفي هذا الصدد كتب شويللر: "مع الأخذ بالاعتبار ان الدافع الأول للمسايرة عند والت هو: "تجنب الهجوم. وهذا بالنسبة له يعني استرضاء الجانب الأكثر خطورة [...] لنفترض ان الحرب آتية، وان الدولة التي ترزح تحت وطأة الخطر يجب عليها اختيار جانب معين، لكن لا يوجد هنالك اختلالا في التوازن. ولإيجاد مأوى من العاصفة، فإن هذه الدولة قد تتحالف مع التحالف الأقوى لأنّ هناك أماناً من حيث المبدأ وان بقاؤها يعتمد على كونها مع الجانب الفائز. هنا، [يكون] مصدر الخطر الأكبر على الدولة لا يأتي من جانب او آخر وإنما يأتي من العواقب التي سيتحملها الطرف الخاسر".[3] وهكذا فأن "القوة، وليس التهديد، هو الذي يقود خيار الدولة".[4] أمّا الدافع الثاني للمسايرة عند والت، والمتمثل بالمشاركة في غنائم النصر، او الرغبة في سلب الآخرين، فأن شويللر يجادل بأن ذلك أمر صحيح ومؤكد لكنه لا يتسق مع ادعاءات والت الذي يقول بأن "الموازنة والمسايرة ينظر لهما على انهما استجابة للتهديدات". فعلى سبيل المثال، الأمن من المانيا لم يكن الدافع الرئيس لإعلان ايطاليا الحرب ضد فرنسا عام 1940، وكذلك قرار اليابان بمسايرة دول المحور في العام نفسه، فضلا عن ذلك فأن حماس (جوزيف ستالين) لمحاربة اليابان عام 1945 كان مدفوعاً برغبة كسب الغنائم التي أراد أن يظفر بها أكثر من دافعه بتوفير الأمن من الخطر الياباني او الاميركي، لذا فأن شويللر يجادل بقوة بأن الجانب النفعي – الانتهازي لسلوك المسايرة مهم بشكل خاص لتقييم خيارات التحالف للدول التعديلية، كما يجادل بأن والت يعرف ذلك جيداً لكنه يتجاهله بعد ذلك لأنّ منطق نظريته (توازن

---

(1) Ibid, p.81.

(2) Ibid, p.82.

(3) Randall L. Schweller: Deadly Imbalances.., Op.cit., p.70.

(4) Randall L. Schwellel: Bandwagoning for Profit, Op.cit., p.82.

التهديد) يجبره على الخلط بين الجوانب المختلفة للمسايرة ويدمجها في جانب واحد وهو: الاستسلام للتهديدات.[1]

2: المسايرة أكثر شيوعاً من الموازنة.

يجادل شويللر بأن نظرية توازن التهديد تعاني من مشكلة رئيسة موجودة أصلاً في الواقعية الجديدة (البنيوية)، فهي تنظر إلى العالم بعدسة قوى الوضع الراهن القانعة، فعلى العكس من الواقعيين الكلاسيكيين أمثال (إدوارد كار) و (هانز مورجنثاو)، يفترض الواقعيين البنيويين بأن دول الوضع الراهن مستعدة لدفع تكاليف عالية وتحمل مخاطر جسيمة من اجل الحفاظ على موقعها في النظام (الحفاظ على الوضع الراهن)، لكنهم لن يدفعوا الا ثمناً قليلا لتحسين وضعهم في النظام (تعديل النظام).[2] وفي هذا الصدد كتب والتز: "في الفوضى، الأمن هو الغاية الاسمى. وعندما يتم ضمان البقاء يمكن للدول ان تسعى بأمان إلى اهداف اخرى كالطمأنينة، والربح، والقوة. ولأنّ القوة هي وسيلة وليست غاية، فأن الدول تفضل اللحاق بأضعف التحالفين [...] والدول إذا رغبت في تعظيم القوة ستلتحق بالجانب الأقوى [...] لكن هذا لن يحدث لأنّ الموازنة، وليس المسايرة، هي السلوك الذي يقتضيه النظام. وأن الشغل الشاغل للدول ليس تعظيم القوة وإنما الحفاظ على وضعها في النظام".[3]

ان هذا الطرح يوضح بشكل جلي لا يقبل الشك ان والتز يتبنى منظور الوضع الراهن؛ اذ يقول شويللر ان والتز محق بافتراضه ان الدول التي تهدف إلى تعظيم قوتها في النظام سوف تساير ولا ترجح سلوك الموازنة، لكن من غير الصحيح – كما يجادل شويللر – ان الشغل الشاغل للدول هو الأمن، لذا ان طرح والتز يصدق فقط على الدول القانعة (دول الوضع الراهن) بقوله ان الهدف الاساس للدول هو الحفاظ على وضعها في النظام. ويتناقض هذا الطرح – كما يقول شويللر – مع طرح الواقعيين الكلاسيكيين الذين وصفوا المصالح الحقيقية للدول وغاياتها الاسمى بأنها "كفاح مستمر من اجل القوة الأعظم والتوسع"، إذ بالنسبة لهم – اي الواقعيين الكلاسيكيين – ان الهدف من الدبلوماسية هو تقويم صحيح للقوى المتعارضة والمصالح وخلق اوضاع مواتية للغزو والتوسع.[4] ويقول (هانز مورجنثاو) ليست

---

(1) Ibid, p.83.

(2) Ibid: p 85 .

(3) Copied from: Op.cit., pp. 85-86. See also: Kenneth Waltz: Op.cit., p.126.

(4) Randall L. Schweller: Deadly Imbalances.., Op.cit., p.21.

السياسة الدولية إلا صراع من أجل القوة والسلطان. إذ تبحث الدول دائما عن الاحتفاظ بهاتين الغايتين ومضاعفتهما واستعراضهما.[1]

يجادل شويللر، ان منع الخسائر في القوة والمكانة هي نصيحة جيدة بالنسبة لدول الوضع الراهن القانعة، والتي تسعى قبل كل شيء للحفاظ على ما لديها، لكن البقاء في الوضع الراهن ليس الهدف الاساس للدول التعديلية، فالأخيرة غير قانعة وتريد التعديل على النظام القائم وهدفها الأسمى هو تحسين وضعها في النظام (تعديل النظام)، فالدعوة إلى نظام جديد يجعل الدول غير القانعة الأخرى تنجذب إلى الدول التعديلية الأقوى وتسايرها، لكن شويللر يرى ان الواقعيين البنيويين يتجاهلون ذلك، ويتجلى ذلك في قول (كينيث والتز): "الدول الثانوية، إذا كانت حرة في الاختيار، تسير مع الجانب الأضعف، لأنّ الجانب الأقوى يهددها. مع الجانب الأضعف تكون أكثر اماناً ومحل تقدير".[2]

يعبّر شويللر عن استغرابه من ادعاء والتز بأن الدول مع الجانب الأضعف تكون أكثر اماناً ومحل تقدير، إذ يتساءل هل ان الدول تصبح أكثر امانا وتقديرا عندما تتحالف مع الجانب الأضعف؟ ويقدم تحالف ايطاليا مع المانيا كمثال لدحض ادعاء والتز، اذ يقول ان (موسوليني) كان يعتقد بأنه سيكون أكثر تقديرا وأكثر استقلالية من الناحية السياسية عندما ساير ركب (هتلر) من كونه عضواً في التحالف الأنجلو– فرنسي الأضعف في بداية الحرب العالمية الثانية، وعلى العكس من المملكة المتحدة وفرنسا، دعمت المانيا النازية هدف (موسوليني) بتحويل البحر المتوسط إلى "بحيرة ايطالية". لكن خسارة ايطاليا الحرب فيما بعد ودفعها ثمن تحالفها مع المانيا النازية، لم يكن بسبب مسايرتها ركب المانيا الأقوى في بادئ الأمر، كما يصدق منطق والتز، بل – كما يقول شويللر – عند دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية كانت ايطاليا مع الجانب الأضعف وليس الأقوى.[3]

ان النقطة الاساس والمهمة التي يشير اليها شويللر هي ان معظم الدول، حتى تلك التي تعدُّ من مصاف الدول العظمى، يجب ان تخدم بالنهاية شخص ما، اذ يؤكد شويللر ان معظم التحالفات تضحّي دائما بشيء من استقلالية السياسة الخارجية، ومن ثم فإن اهم العوامل المحددة لقرارات المُحالفة هي الاهداف السياسية، وليس الاختلال في توازن التهديد كما يزعم (ستيفن والت)، او الاختلال في توزيع القدرات كما يذهب (كينيث والتز)، فكلا النوعين من الدول (دول الوضع الراهن والدول التعديلية) يكون

---

[1] هانز مورجنثار: مصدر سبق ذكره ، ص ص 67– 68.

[2] Randall L. Schwellel: Bandwagoning for Profit, Op.cit., p.87. See also: Kenneth Waltz: Op.cit., p.127.

[3] Randall L. Schwellel: Bandwagoning for Profit, Op.cit., pp.87-88.

المحدد الأول والاهم – كما يجادل شويللر – لتشكيل تحالفاتها هو الاهداف السياسية التي تتمثل اغلبها بالربح والمكاسب، فدول الوضع الراهن، التي يقول والتز انها سوف تلتحق بالتحالف الأضعف لإرساء التوازن، ستنضم إلى تحالف الوضع الراهن حتى لو كان هو التحالف الأقوى، وفي مقابل ذلك فأن الدول غير القانعة والتي تكون مدفوعة غالبا بدافع تحسين قدراتها ومصالحها سوف تساير ركب القوى التعديلية الصاعدة.[1]

يركز شويللر على الجانب الطوعي – الايجابي من المسايرة ويعتقد قد تم اهماله من قبل المنظرين في أدبيات التحالفات لا سيما الواقعيين الجدد، اذ ينتقد شويللر ربط والت المسايرة بالاستسلام للتهديدات، ووصفها بأنها مقايضة غير شرعية مع الطرف الأقوى وقبول املاءات الأخير غير الشرعية والامتثال غير الطوعي له. يفسر ميل المنظرين إلى تجاهل دور الحوافز والاغراءات الايجابية في ممارسة القوة. لذلك يعتقد " الجزاءات الايجابية" هي الوسائل الأكثر تأثيرا للإقناع بسلوك المسايرة، فالدول – كما يصفها شويللر – مثل المفوضين في اتفاقيات الاحزاب يتم جذبهم إلى الجانب المفترض فوزه من خلال وعدهم بالعوائد المستقبلية[2]. وعلى العكس من ذلك، يجادل شويللر ان الاعتماد على القوة القهرية لإجبار الدول على المسايرة وإكراهها على ذلك غالبا ما يأتي بنتائج عكسية للشريك المهيمن، فالمساير كرهاً يصبح حليف غادر وسيسعى إلى الانتقام، فضلا عن انه سيخرج من التحالف في اول فرصة تتاح له لفعل ذلك.[3]

ان الامثلة التي يطرحها شويللر، والتي تؤكد شيوع المسايرة لاسيما في الجانب الطوعي منها عديدة، ففرنسا لويس الرابع عشر حققت حالة من هيمنة خلال الفترة من 1667 – 1669 على اوروبا إلى حد كبير من خلال جذب المسايرين وتعظيم قوتها عن طريق الوعد بالمكافآت، وابرز المسايرين لفرنسا في ذلك الوقت هي الامبراطورية النمساوية بقيادة الامبراطور (ليوبولد الاول) من أسرة الهابسبورك، اذ سايرت الأخيرة فرنسا من اجل تقسيم اسبانيا، وفي المدة من 1672 – 1679 وفي خضم الاستعداد للحرب ضد الاراضي المنخفضة (هولندا حالياً) عرض (لويس الرابع عشر) مكافآت (عوائد) للحصول على دعم جميع القوى التي عارضته في السابق، اذ وقع (تشارلز الثاني) ملك انجلترا في تلك الفترة معاهدة (دوفر) في عام 1670 مع خطط لشن هجوم انجلوا – فرنسي ضد الاراض المنخفضة عام

---

(1) Ibid, p.88.

(2) Randall L. Schweller: Deadly Imbalances., Op.cit., p.76.

(3) Randall L. Schwellel: Bandwagoning for Profit, Op.cit., p.89.

1672 مقابل موافقة (لويس الرابع عشر) على تقديم إعانات إلى انجلترا ومكاسب اقليمية تتعلق بمصب نهر (شيلدت).[1]

ومثل سلفه قام (نابليون بونابرت) باستخدام المكافآت الاقليمية والانتصارات العسكرية لجذب المسايرين، فعلى سبيل المثال قام (نابليون) بإنشاء (اتحاد الراين) عام 1806 كثقل موازن لبروسيا والنمسا، اذ قام بتقوية كل من (بافاريا) و (بادن) و (وتنبرغ) وولايات المانية اخرى على حساب الولايات الالمانية الصغيرة، ومن خلال اغراءها بوعود العظمة قامت تلك الولايات بمسايرة ركب (نابليون) بشكل طوعي. وفي مثال آخر، ساير (القيصر الكسندر الاول) ركب الامبراطورية الفرنسية عام 1807، هذه المسايرة لم تكن فقط لأنّ (نابليون) استخدم انتصاراته العسكرية على جيش القيصر في (فريندلأنّد)لإجباره على التحالف معه، بل اقترن ذلك بمكافآت لـ (فيستولا) بوصفها الحدود الممتدة والمتاحة لروسيا، كما عرض (نابليون) ايضا على روسيا السيطرة على الامبراطورية العثمانية في قسمها الاوربي وفنلندا، كما شجع المزيد من الغزوات الروسية في آسيا، وبالمقابل طلب نابليون من (القيصر) الانضمام إلى التحالف المشكل ضد انجلترا، واستخدم (نابليون) نفوذه لاجبار الدنمارك والسويد بأن يحذوا حذوهم، كما قام بأرسال الاسطول الروسي لمساعدة فرنسا في الاستيلاء على جبل طارق.[2]

وفي عصرنا الحالي، نرى عدد من الدول، لا سيما تلك التي تكون غير قانعة بالنظام القائم، تحاول مسايرة قوة الصين الصاعدة، ومحاولة الاستفادة منها، لما توعد بها من عوائد لا سيما في المجال الاقتصادي.

فسلوك المسايرة، بحسب شويللر، تحرك النظام نحو التغيير، ويصفها بأنها "مثل كرة تتدحرج على منحدر"، ونجاح دولة ما يؤدي الى جذب الدول الاخرى لها وليس مقاومتها لاسيما الدول التي ترمي الى الاستفادة من هذه النجاحات. يقول شويللر ان في لغة نظرية النظم يُعدّ سلوك المسايرة شكل من اشكال التغذية الايجابية، أمّا السلوك التوازني فأن الغرض منه منع الاختلال في التوازن، او عندما يفشل الردع يعاد التوازن، فالتوازن شكل من اشكال التغذية السلبية.[3]

---

(1) Ibid, pp.89-90.

(2) Ibid, pp.90-91.

(3) Randall L. Schweller: Deadly Imbalances.., Op.cit., p.77. See also: Robert Jervis: Domino Beliefs and Strategic Behavior in; Robert Jervis and Jack Snyder (ed), Dominoes and Bandwagons, Op.cit., pp.22-23.

في مقابل ذلك، يجادل شويللر، بأن سلوك المسايرة ليس بالضرورة سلوكا مرغوب به دائماً، ولكن في الوقت نفسه ليس سلوكا منبوذاً، وذلك متوقف على طبيعة النظام القائم: فإذا اتسم النظام بالنزاع فأن سلوك المسايرة قد يعزز احتمالات سلام أكثر ديمومة، أمّا إذا كان النظام مستقراً نسبياً فأن المسايرة تقوض او تقلل من استقرار النظام، فعلى سبيل المثال، ان "مسايرة ابن آوى"* مع دولة صاعدة وتوسعية او تحالف يسعى إلى قلب الوضع الراهن يقوض من استقرار النظام. أمّا "مسايرة الاصطفاف" مع تحالف الوضع الراهن الأقوى فأنه يعزز من استقرار ذلك النظام.[1]

ان الاشكال الاخرى للمسايرة – كما يقول شويللر – قد تتفاوت تأثيراتها على استقرار النظام، بيد ان ما تشترك فيه كل اشكال المسايرة هو انها تكون مدفوعة من خلال امكانية الربح والمكاسب، وهنا يكمن الاختلاف الأساس والجوهري بين سلوك المسايرة وسلوك الموازنة، فالاخيرة نشاط مكلف للغاية لا تفضل معظم الدول المشاركة فيه، لكن في بعض الاحيان يتوجب عليها ان تحافظ على بقاؤها وحماية مصالحها، أمّا سلوك المسايرة فهو لا ينطوي على تكاليف وعادةً ما يتم توقع المكاسب منه، وهذا ما يجعل سلوك المسايرة، بحسب شويللر، أكثر شيوعاً من الموازنة، وهذا بعكس ما يذهب إليه كل من (كينيث والتز) و(ستيفن والت) بافتراضهما بأن سلوك الموازنة أكثر شيوعاً من المسايرة.[2]

الخاتمة:

في ضوء ما تقدم، انطلق منظرو الواقعية الثلاثة (والتز، والت، شويللر) في معالجتهم لسلوكي الموازنة والمسايرة، من وجهات نظر مختلفة بحسب عدة اعتبارات: أولها مستوى النظام الذي تُحلّل في ضوئه العلاقات الدولية من حيث التحالفات والسلوكيات، فعندما يكون مستوى التحليل الرئيس النظام الدولي، تصبح الموازنة هي المسيطرة في تفاعلات النظام الدولي، كما ذهبا لذلك والتز ووالت نتيجة فوضوية ذلك النظام. أما اذا تعددت مستويات التحليل، كما لدى شويللر بين النظام الدولي، والدولة، والفرد، ستتقدم المسايرة على الموازنة في تفسيرها لتلك التفاعلات والتحالفات الدولية. ثانيها، تعددت وجهات النظر بشأن دوافع التحالفات وسلوكيات الدول، بين من يؤكد ان عدم التساوي في توزيع القدرات (والتز)، هو السبب الرئيس للتحالفات، ومن ثم الاتجاه الى الموازنة. او يكون الدافع موازنة التهديدات (والت)، اذ يرى الأخير بأن الدول توازن ضد التهديد وليس ضد القوة، لتحدد في ضوء ذلك، الموازنة او

* مسايرة ابن اوى هي احد اشكال المسايرة التي يطرحها (راندل شويلر).

(1) Randall L. Schwellel: Bandwagoning for Profit, Op.cit., p.93.

(2) Randall L. Schweller: Deadly Imbalances.., Op.cit., p.77.

المسايرة من خلال اختيارهم للتحالف أمّا ضد مصدر التهديد الرئيس (الموازنة) او مع مصدر التهديد الرئيس (المسايرة). او يكون الدافع كما يذهب شويللر على أساس المصالح وكيفية تحقيقها، وهنا تكون الارجحية بحسبه الى المسايرة. ثالثهما، الهدف من التحالفات والتفاعلات، اذ يرى والتز ان الهدف يتعلق بتحقيق الامن والبقاء، ويرى بان الالية الرئيسة تكون عبر الموازنة كسلوك شائع وليس المسايرة كسلوك نادر. أما ما ذهب اليه والت فيكون إما (البقاء-زيادة التأثير)، وهنا تتجه الدول نحو الموازنة. أو يكون الهدف (تجنب الهجوم عليها- تحقيق مكاسب على الأرض)، هنا تتجه الدول الى المسايرة. أما شويللر فيرى بان الهدف الرئيس للدول في ظل نظام فوضوي هو الحصول على الربح والمكاسب، وهذا ما جعل شويللر يذهب الى أن هذا السلوك هو الشائع في النظام الدولي. فنظرية توازن المصالح التي طرحها شويللر هي نظرية تركّز على الاهداف السياسية العامة، وليس الأهداف الأمنية فقط.

بناءً عليه؛ فإن سلوكيات او استراتيجيات التحالفات (الموازنة والمسايرة) بحسب الواقعيون الجدد أمثال والتز ووالت يميلون الى ترجيح سلوك الموازنة Balancing بوصفه السلوك الشائع في السياسة الدولية، وهذا يعود في جزء كبير منه في تركيز على طروحات متغير "الأمن" وما يترتب عليه من الهدف البقاء بوصفه الهدف الأسمى، حتى عُرفوا، أو اِتَّهَمُوا، بتحيزهم للوضع الراهن. لذا ينصب تركيز الواقعيون الجدد (البنيويون) على كيفية منع دولة ما أو تحالف من اكتساب قوة إضافية في محاولة إلى منع الاختلال في القوة والحفاظ على التوازن.

وفي طرح مغاير لما أتى به كل من والتز ووالت، يرجح راندل شويللر سلوك المسايرة بوصفه السلوك الذي شاع في السياسة الدولية؛ لأن الواقعيين الكلاسيكيين الجدد، ومن ضمنهم شويللر، سبروا أغوار الدولة وفتحوا "الصندوق الأسود" من خلال الخوض في متغيراتها التي تتفاعل من المتغيرات النظامية، ووجدوا أن الدول لا تنزع الى الأمن فقط وإنما منها من يسعى نحو امتلاك مزيداً من القوة، لذا ظهرت لدينا القوى التعديلية التي لا تريد الأمن فقط في ظل وضع راهن لا يناسبها، وإنما تسعى إلى قلب هذا الوضع او تعديليه لاكتساب مزيداً من القوة والنفوذ. ومن ثم فإن الدول التي سعت الى القوة، بحسب شويللر، كانت غالباً ما تختار سلوك المسايرة مع الجانب الأقوى.

فضلا عن ذلك؛ إن هذا الاختلاف التنظيري داخل النظرية الواقعية في فهمها للعلاقات الدولية وتفسيرها لسلوكيّ الموازنة والمسايرة يساعد على إغناء النظرية، وتحفيز الكثير من منظريها في ضخ أفكار جديدة ومتجددة من خلال إعادة النظر في طروحات من سبقتهم وتنقيحها بما يتناسب وتطورات النظام الدولي وتفاعلاته. كما أن ذلك ساعد ويساعد على استمرار أهمية تفسير النظرية الواقعية للأحداث

والتطورات والتحولات الدولية والحيلولة دون تلاشي أهميتها، لا سيما بعد ما تعرضت له من تشكيك في نجاعة تفسيرها للوقائع بعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتي الذي، كما عُرف، لم تستطع التنبؤ بهذا الحدث المهم من أحداث القرن العشرين.

الاستنتاجات:

1. إن الجدل النظري داخل النظرية الواقعية في العلاقات الدولية يشكل عاملاً يرفد وينشّط طروحات هذا المدرسة ويجعله أكثر عصرية وتطوراً في تفسير الأحداث والتطورات الدولية.
2. سلوك المسايرة هو سلوك مهم من سلوكيات التحالفات في النظام الدولي (وينسحب ذلك على النظام الاقليمي أيضاً) وتكون دوافعه أما ذات جانب انتهازي – طوعي قائم على الاهداف السياسية (الربح والمكاسب)، وهو الجانب الذي يطغي على دوافع الدول التي تبنت هذا السلوك، او جانب قهري قائم على اساس التحالف مع الجانب القوي لدرء الاعتداء عليها.
3. اعتماد او تركيز نموذج توازن القوى الذي طوره والتز ونظرية توازن التهديد التي طرحها ستيفن والت على مستوى واحد من مستويات التحليل، جعلت طروحاتهم تتميز بالصرامة وصعوبة التكيف مع المستجدات في النظام الدولي. ونتج عن ذلك إهمال الخوض في مصطلح المسايرة وسبر اغواره. مما حدى براندل شويللر ليتصدى الى هذه المهمة، بعد أن قدّم نقداً ومراجعة مهمة لما أتى به هذان المنظران (والتز ووالت).
4. إن دراسة سلوكي الموازنة والمسايرة ضروري ومهم للتعرف على تأثير هذين السلوكين على مسار الاستقرار والتغير في السياسة الاقليمية والدولية سواءً على المستوى التاريخي او في عصرنا الحالي.